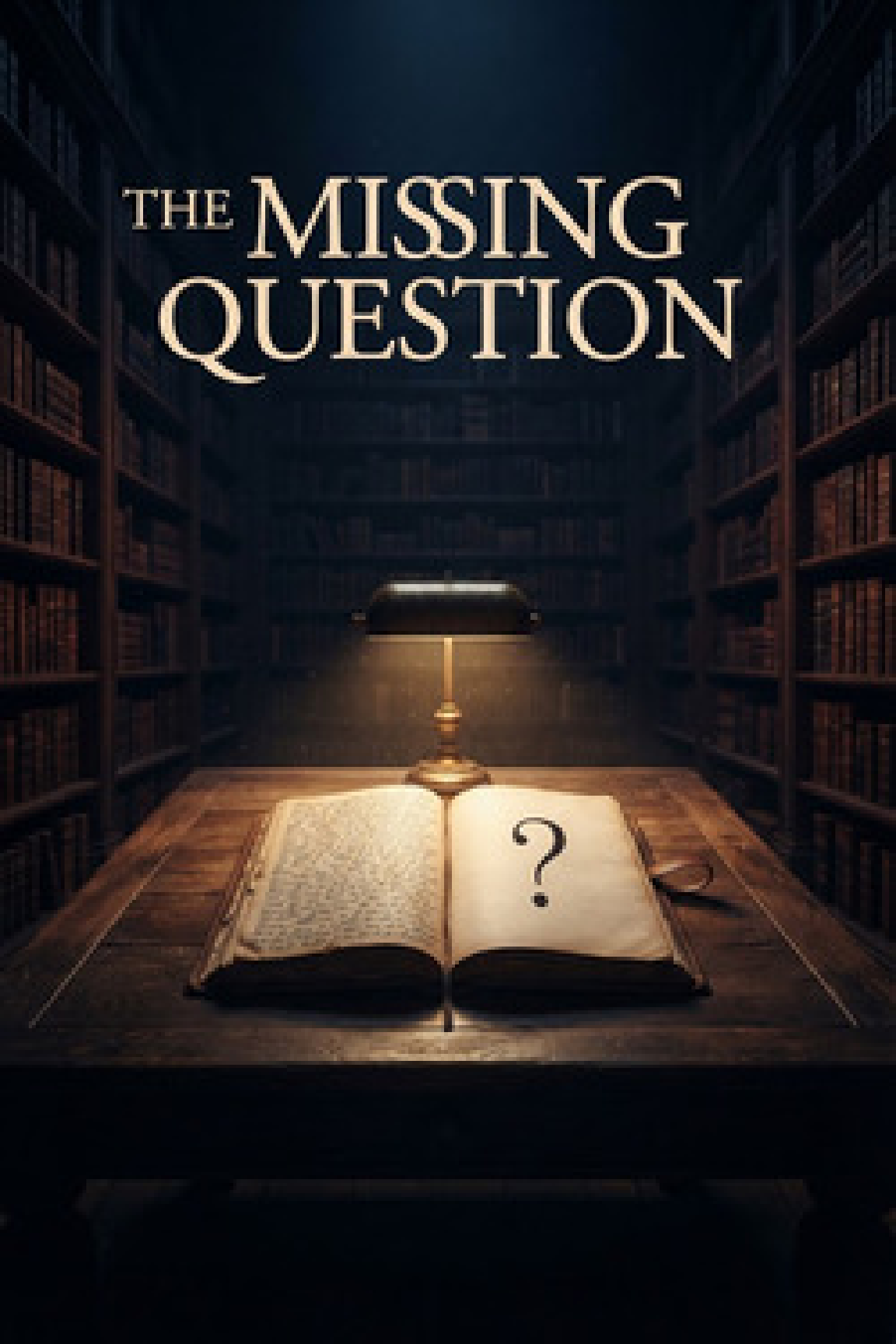

THE MISSING QUESTION
?

الجزء الثاني

عتبة 6

السؤال الغائب

طوال جزء كبير من حياتي لاحقت الإجابات.

كما يفعل الجميع تقريبًا.

أردت أن أعرف ما القرار الصائب.

وما الطريق الأفضل.

وما معنى ما كنت أعيشه.

أردت وضوحًا.

اتجاهًا.

تأكيدًا.

كنت أعتقد أن النضج يكمن في مراكمة الإجابات.

كلما مرّ وقت أطول، كان يُفترض بي أن أفهم آلية عمل الأشياء أكثر.

وكلما راكمت خبرة أكبر، كانت شكوكي ستقلّ.

كانت نظرية أنيقة.

المشكلة أن الحياة بدت كأنها تتجاهلها تمامًا.

كانت السنون تمر.

والخبرة تنمو.

والمسؤوليات تزداد.

ومع ذلك لم تكن الأسئلة تتناقص.

بل على العكس.

كانت تصير أعمق.

أكثر تركيبًا.

أكثر صعوبة.

كان اكتشافًا مزعزعًا.

في صباي كنت أتخيل الكبار أشخاصًا قد فهموا.

ثم صرت كبيرًا.

واكتشفت أن كثيرين منا تعلموا ببساطة التعايش مع اللايقين.

وليس هذا الشيء نفسه.

ثمة فرق هائل بين أن تعرف وأن تواصل.

كثيرون يواصلون.

قليلون يعرفون حقًا.

أذكر فترة كنت أبحث فيها عن الإجابات في كل مكان.

في الكتب.

في المنظمات.

في الأسفار.

في الأشخاص الأكثر خبرة.

في الروحانية.

في العقلانية.

في الأرقام.

كنت أعتقد أن ثمة، في مكان ما، تفسيرًا قادرًا على تنظيم كل شيء.

معادلة.

مفتاحًا.

نظامًا.

لكن في كل مرة ظننت أنني وجدته، كانت تأتي تجربة جديدة تضعه موضع تساؤل.

في البداية كان الأمر محبطًا.

ثم صار مثيرًا للاهتمام.

وأخيرًا صار باعثًا على التحرر.

لأنني فهمت شيئًا.

الإجابات عمرها قصير.

الأسئلة الصائبة عمرها طويل.

طويل جدًا.

بعضها يرافقنا عقودًا.

من أنا؟

ما الذي يهم حقًا؟

ماذا يعني أن نحب؟

ما الذي يستحق أن نتألم من أجله؟

ما الذي يبقى حين يتغيّر كل شيء؟

ليست أسئلة تُحل.

بل أسئلة تُسكن.

الفرق جوهري.

الإجابة تغلق.

والسؤال يفتح.

والحياة، في نهاية المطاف، تفضّل الانفتاح.

في كل مرة كنت أعبر فيها تجربة جديدة، كنت أنتبه إلى أن القيمة لا تكمن كثيرًا في الخلاصة التي بلغتها.

بل تكمن في السؤال الذي ولّدته.

الخسارة تولّد سؤالًا.

والحب يولّد سؤالًا.

والمرض يولّد سؤالًا.

والانتصار يولّد سؤالًا.

حتى النجاح يولّد سؤالًا.

غالبًا ما يكون أصعب بكثير من الفشل.

لأنه بعد أن تحصل على شيء، يطل تساؤل غير متوقع:

«والآن؟»

لسنوات اعتقدت أن معنى الأشياء مخبوء في الإجابات.

ثم بدأت ألاحظ مصادفة غريبة.

الأشخاص الأكثر إثارة للاهتمام الذين كنت ألتقيهم كانوا أيضًا الأقل يقينًا.

لم يكونوا مترددين.

بل كانوا منفتحين.

كانوا يفهمون أن الواقع أوسع من قناعاتهم.

وأكثر تعقيدًا من قوالبهم.

وأغنى من خلاصاتهم.

لهذا كانوا يواصلون طرح الأسئلة.

لا عن ضعف.

بل عن ذكاء.

الذكاء الأصيل لا يكمن في امتلاك إجابات كثيرة.

بل يكمن في تمييز الأسئلة التي ما تزال تستحق أن تُطرح.

على مدى حياتي زرت بلدانًا مختلفة.

ثقافات مختلفة.

أديانًا مختلفة.

أنظمة مختلفة.

كل مكان كان يملك إجابات مختلفة.

ومع ذلك كانت الأسئلة الجوهرية متطابقة في الغالب الأعم.

كيف نعيش.

كيف نحب.

كيف نواجه الموت.

كيف نتعايش مع الزمن.

كيف نجد معنى.

هزّني هذا بعمق.

لأنه كان يُظهر شيئًا كونيًا.

الحضارات تغيّر لغتها.

أما الأسئلة الجوهرية فلا.

ربما لهذا بالذات يبقى الأدب القصصي حيًا.

لأنه لا يقدم حلولًا.

بل يقدم استكشافات.

الرواية ليست وسيلة لحل الحياة.

بل وسيلة لإضاءة سؤال.
والسؤال الجيد يمكن أن يرافق الإنسان سنوات.
أفضل من إجابات كثيرة.
أذكر يومًا وجدت نفسي فيه أتأمل كل اليقينيات التي تخلّيت عنها.
كانت كثيرة.
كثير منها حكم فترات طويلة من وجودي.
بعضها كان نافعًا.
وبعضها أقل نفعًا.
لكنها كلها أفسحت المجال لشيء أكثر نضجًا.
الوعي بأن الواقع ليس محكمة.
بل هو حوار.
حوار لا نهاية له بين ما نعرفه وما لا نعرفه.
بين ما نفهمه وما يفلت منا.
بين ما كنّاه وما نصيره.
منذ تلك اللحظة كففت عن معاملة الشكوك كأعداء.
وبدأت أعتبرها رفاق سفر.
ليست كل الشكوك جديرة بالانتباه.
بعضها ضجيج.
بعضها خوف.
بعضها مجرد ارتباك.
لكنّ ثمة شكوكًا أخرى.
أعمق.

أكثر صمتًا.

أكثر صدقًا.

تلك التي تظل تعود.

تلك التي تطرق باب الوعي عامًا بعد عام.

تلك التي تطلب أن يُصغى إليها.

تعلمت أن أحترمها.

لأنها كثيرًا ما تحرس شيئًا مهمًا.

تحولًا.

حقيقةً.

اتجاهًا.

جزءًا منا لم يُستكشف بعد.

حين أنظر إلى الوراء، لم أعد أنبهر بالأشخاص الذين يملكون إجابة عن كل شيء.

بل يهمني أكثر أولئك الذين يعرفون كيف يطرحون سؤالًا أصيلًا.

لأن الإجابة قد تستنفد نفسها.

والسؤال قد يولّد حياة بأكملها.

ربما كان هذا من أثمن الدروس التي تركها لي الزمن.

لا تبحث عن الإجابة وحدها.

ابحث عن السؤال الذي ولّدها.

لأنه خلف كل قناعة ذات معنى.

خلف كل تغيير حقيقي.

خلف كل خيار مهم.

خلف كل حكاية تستحق أن تُروى.

ثمة دائمًا سؤال غير مرئي.

وهناك تبدأ الرحلة.

قبل الإجابة بزمن طويل.